بمناسبة الذكرى الثانية والثلاثين لرحيله..

هاشم محمد الخطاط.. آخر الخطاطين العظام

مهند الليلي

يقترن ذكر الخط العربي في العراق بذكر هاشم محمد البغدادي الخطاط الذي اصبح علماً من اعلام هذا الفن العربي الاصيل، وقطباً من اقطاب تاريخه الطويل، ويعود الفضل في ذلك إلى جهوده المتميزة والمبدعة في بعث الروح الفنية إلى هذا الفن الجميل بعد ان اصابه شيء من الركود والانحسار خصوصاً منذ اواسط القرن الماضي، ومن هنا استحق الفنان هاشم لقب "عميد الخط العربي".

لقد امتلك الفنان هاشم الخطاط ملكة فنية ساحرة اهلته لاحتلال ناصية فن الخط العربي امتلاكاً مبدعاً وشمولياً، في نواحية الفنية والتقنية والثقافية، وفجرت لديه طاقة الخلق الفني في "مشق" الآثار الكتابية المختلفة "مشقاً" رشيقاً وانيقاً في تكوينات جديدة سبق غيره اليها وتميز بها عنهم، ما ساعده بالتالي على الانطلاق بالخط العربي من كبوته الفنية والحضارية إلى آفاقه الفنية الاصيلة والرحيبة، واحتلاله مكانته التاريخية والقدسية التي كانت له ابان عصور بغداد الذهبية على زمن ابن مقلة وابن البواب وسواهما..

في محلة من محال بغداد القديمة، محلة (خان لاوند)، وفي بيت من بيوتها العريقة، ولد المرحوم هاشم في حدود العام ١٩٢١، وعلى عادة اقرانه واترابه، فقد انتظم عند احد الملالي المعنيين بتعليم الصبية، وقد استقر في بيت قديم في "دربونة الكردية" التي تقابل بيت المرحوم هاشم. وكان من المدللين الذين يحظون بعناية ورعاية بين اقرانه، ولم تكد سنواته الاولى تنقضي حتى تعلم القرآن وحفظ شيئاً منه بعد ان تعلمه وختمه، ولم تكد سنواته الاولى تنقضي حتى بدأت هواية الكتابة تستقر في حياته لتصبح اعتياداً يمارسه وزمناً يقضيه في اشباعها واكداساً من الاوراق والاخبار تتجمع في الزاوية المخصصة له من البيت، وكان يطلق عليها "الحزينة"...

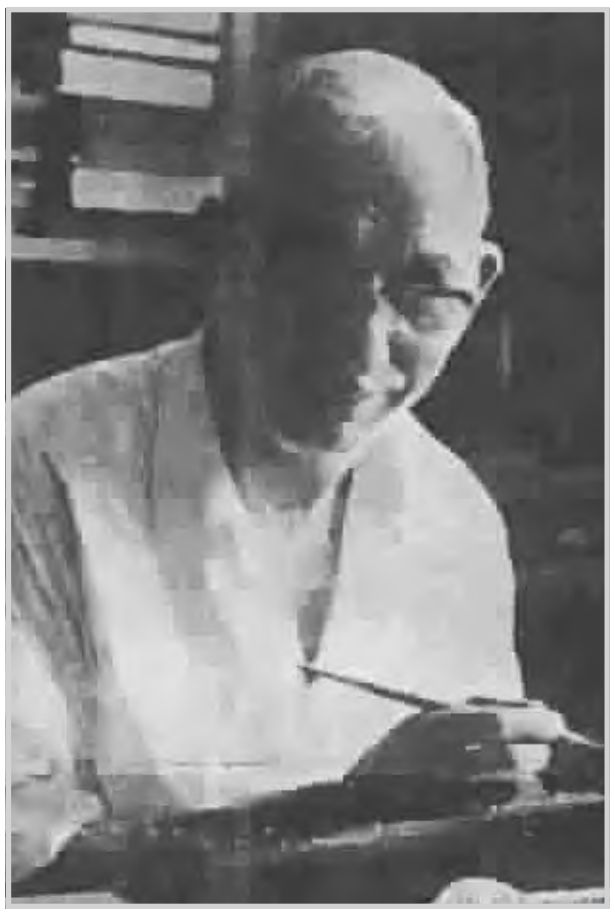

لقد انتسب إلى الملا عارف الشيخلي صاحب المدرسة الاحمدية، ولم تطل اقامته عنده ولكنه تاثر به إلى حد بعيد واخذ عنه بعض ما كان يراه فيه من ضبط وقواعد لأصول الكتابة. ثم انتمى في اخذ الخط إلى الحاج "علي صابر" الذي كان حاد المزاج ويستكثر في هاشم تفوقه في الخط ما جعل هاشم ينصرف عنه ليجد ضالته عند الملا "علي الفضلي" الذي استوعب الاصول الفنية للخط العربي والتزم بها وحافظ عليها ونبغ فيها واصبح علماً من اعلام بغداد. وقد استقرت اصول الخط عند هاشم في هذه الحقبة، واخذت ابعادها الحقيقية وهي تجد التشجيع والتوجيه وانتهت بمنح المرحوم هاشم شهادة الاجازة بالخط سنة ١٣٦٣هـ / ١٩٤٣م. واذا كانت مسيرة الخط قد امتدت بالمرحوم هاشم اثنين وعشرين عاماً ليمنح بعدها الاجازة التقديرية، فان مسيرة الحياة كانت تفرض عليه ان يقف بحذر لانها تبعده عن هوايته وتضعف قدراته وتخفف من اندفاعه الذي ملك عليه حياته بعد ان استغرقه الخط وجوداً وفكراً وثقافة واصبح الهم الوحيد الذي يفكر فيه، ولم تمنحه فرص الحياة انجاز رسالته في التعليم بعد ان غادرها في المراحل الاولى ليجد في وزارة الدفاع عملاً يطوي به هموم الحياة.

وكانت مديرية المساحة العامة عام ١٩٣٧ محطة عرف فيها الخدمة في دوائر الدولة، ليلتقي فيها بمجموعة من الخطاطين امثال المرحوم صبري الهلالي وعبد الكريم رفعت وغيرهما ممن توطدت بهم الثقة..

لقد كان هاشم الخطاط، ومنذ نعومة اظفاره ميالاً إلى هذا الفن، بل كان ولوعاً به، فتقلب في الدرس على ايدي عدد من رجالات بغداد من العالمين بعلوم الدين وفنون الخط، خاتماً على ايديهم القرآن وآخذاً عنهم فنون الخط، وبعد ذلك مضى الخطاط هاشم في الارتقاء بادائه الفني على اصول الخط العربي الذي عرف بالتزامها والمحافظة عليها في تجويد الخط العربي تجويداً متميزاً ساعد على اعادة الروح الفنية إلى كيان الخط العربي على اواسط القرن الماضي من جهة، وساعد على بعث مجد بغداد التاريخي عبر هذا الفن من جهة اخرى، ما دعا الخطاط الكبير المرحوم "حامد الآمدي" إلى مخاطبته بالقول ان "فن الخط انطلق من دار السلام بغداد، ويعود معك إلى دار السلام"..

ولقد قادة هذا التقدم في الاداء الفني الخطي إلى ان يحظى باعجاب ومباركة كبار الخطاطين في العالمين العربي والاسلامي، وإلى نيل الاجازة في الخط من اكثر من واحد منهما، فكان نيله الاجازة من الملا علي الفضلي سنة ١٩٤٣، وبعدها اجازه الخطاط المصري الكبير سيد ابراهيم عام ١٩٤٤، وكان ان اجازه في العام نفسه الخطاط المصري الشهير حسني، كما اجازه الخطاط التركي الكبير المرحوم موسى عزمي المعروف بحامد الآمدي... اجازه مرتين، الاولى كانت عام ١٩٥٠ والثانية عام ١٩٥٢، وشهد له بكونه من خيار الخطاطين واولهم في العالم الاسلامي، كما ان هاشم قد حاز على دبلوم الامتياز في الخطوط من مدرسة تحسين الخطوط في القاهرة..

وقد تتلمذ على يديه عدد غير قليل من الخطاطين والمعنيين بشؤون الخط، ومن ابرز تلامذته الخطاط عبد الغني العاني الذي نال الاجازة منه، وغيره كثير..

قدم الخطاط هاشم اعمالاً خطية خالدة شهدت له بدوره الريادي في تعميق اصالة هذا الفن وبعثه على نطاق واسع، ولعل من ابرز اعماله كراسته الشاملة والشهيرة باسم "قواعد الخط العربي" والتي امتازت بروعتها الفنية نظراً لما ضمته من نفائس خطوطه ولوحاته، وقد طبعت اكثر من مرة وبطبعات مزيدة ومنقحة، وهي لا تزال المرجع الامثل على الاطلاق بين الخطاطين، اما جهوده المتميزة في الاشراف الفني على طباعة المصحف الشريف، فقد كانت مفخرة لخلوده وخلود فنه، وقد كان شديد الفخر والاعتزاز بانجازاته هذه، إلى جانب ما قام به من كتابات وخطوط الاشرطة التعريفية والتذكيرية والارشادية في مساجد بغداد وجوامعها، كما كانت لهاشم اسهامات متميزة في تصميم الاوراق المالية لعدد من الدول العربية.

ان الخطاط هاشم محمد البغدادي كان فناناً طموحاً يؤمن بأن الخط فن اصيل وحيوي يكتنز روحاً فنية وجمالية فياضة، وقد جاهد هاشم في سبيل ان يحتل الخط العربي موقعه المتميز في الساحة الفنية العربية، وقد اشار إلى ذلك الاستاذ ناصيف عواد عندما سجل في دفتر ملاحظات المعرض الثالث بجمعية الخطاطين العراقيين، الكلمات التالية "..... وانا ما زلت اتذكر ان الفنان العظيم هاشم الخطاط كان يحلم ان يكون كل عربي مبدعاً وفناناً، وذلك على اثر جدل بيني وبينه، اذ قلت آنذاك بان المطابع تفي بالغرض، لكنه قال وبلهجة حب وعناد، بضرورة وجود الروح في الكتابة".

لقد اعاد هاشم إلى بغداد مجدها في الخط العربي، فكان مدرسة من مدارسها الخالدة، وكان من اشد خصوم دعاه التطوير في الحرف العربي واختزاله، اذ كان يعتبر هذه الظاهرة جناية بحق الخط العربي وقواعده، وتهرباً من جمالياته وابداعه، ورؤية معتمة لهذا التراث الزاخر من الخطوط العربية التي لا يمكن حصرها والألمام بقواعدها واشكالها الفنية، وعلى الرغم من تأثر هاشم بالخطاطين الاتراك الا انه احتفظ بالقاعدة البغدادية، وقد قال فيه الشاعر جلال الحنفي:

لك في النفائس هاشم بن محمد
ما جل في الابداع عن وصف اللغى

ولقد قال عنه العلامة الشاعر "وليد الاعظمي" قبل وفاته:

ان الخطاط هاشم عندي هو العملاق الكبير في عالم الخط العربي الذي يراه كل الخطاطين كما يرى اسوياء الناس العملاق بينهم، وانظر اليه وقد نال الدرجة العالية الرفيعة في عالم الخط العربي، وترك بعده درجات عديدة شاغرة، وان الذي يليه في الخط تكون بينهما درجات عديدة... ونظري إلى فنه وهو الصافي المهذب المعتنى به، فقد كان المرحوم هاشم يختلف عن سائر الفنانين، كان لا يكتب من دون رغبة، ولا مستعجلاً، وقد رايته ورافقته يوماً كاملاً من الصباح وحتى المساء فرأيت اعتناءه بوضع الحرف في اول النهار مثل اعتنائه بوضعه آخر النهار، وكان يعتز بخطه ويكتبه بعناية كبيرة ويوقع تحته، كان كتلة من الفن يتعامل مع الحروف بمسؤولية كبيرة، وكنت امثله بالرجل المتصوف المنصرف إلى العبادة والتسبيح، وكان مكتبه بمثابة (خلوة) روحية له يختلي فيه كما يختلي المتصوفة في رباطهم، وقد رافقته عشرين سنة فرأيت فيه الرجل المثالي في اخلاقه وفنه وتواضعه، كان هاشم معجباً بالخطاط راقم وبالخطاط الحافظ عثمان وكان متأثراً بقاعدة استانبول في الخط، وكان رحمه الله ينوي كتابة المصحف الشريف بخط النسخ، وكان يتوخى ان يكتبه بطريقة فريدة، حيث لا يختلف فيه حرف عن مثيله في كل المصحف، وكان قد هيأ ورقاً خاصاً لهذا المشروع، وقد سمعت من بعض الاصحاب انه قد كتب في المانيا بعض الاجزاء من المصحف الشريف (تصل إلى العشرة) ولكنها فقدت من متاعه في العودة إلى بغداد.

كان الخط شغله الشاغل فلا يكاد يرى غيره، فكان اذا رأى نخلة أعجبته مثلاً شبهها بالف الثلث، او اذا اعجبته فتاة لها ظفيرة شبهها بالف الثلث ايضاً، ومن الملاحظات الدقيقة عن قدرته الفنية ان هاشم كان يختلف عن الخطاطين جملة في ناحية مهمة وهي انه كان قبل كتابة العنوان او اللوحة يرسم في ذهنه صورتها كاملة وكانه ينفذها عن صورة امامه، وعلى الرغم من انه كان يكتب من الصباح وحتى المساء في مكتبه فقد كان لا يطلب ثمناً لجهوده الا بعد الحاح صاحب العلاقة، وذلك بسبب غلبة الحياء عليه..

وقد ذكر العلامة وليد الاعظمي هذه الطرفة:

ذات يوم، راجع هاشم رحمه الله دائرة الكهرباء لأمر يتعلق بداره، فطلبت منه الدائرة احضار لوحة تحمل رقم الدار وتوضع على الباب، فاحتار وقتها بذلك فارشده احد الموظفين إلى كاتب عرائض (يخط) للدائرة خطوطها، فطلب المرحوم هاشم من ذلك (الخطاط) ان يكتب رقم داره على لوحة، فكتبها الرجل بخط ضعيف، لم يرض هاشم، وبعد انتهائه منها، طلب منه هاشم الفرشاة لتعديل زوايا الارقام وتشذيبها، فلما رآه ذلك (الخطاط) قال لهاشم: لماذا شوهتها وقد كتبتها لك بصورة جيدة، ولماذا تتدخل في (شغلة) هي ليست شغلتك!؟

فاعتذر منه هاشم، لكن صديقاً له سلم عليه وهنا عرف (خطاط) لوحات ارقام الكهرباء على خطاطنا الكبير، فاعتذر الرجل لهاشم واعاد اليه احد الدراهم الثلاثة التي كان قد تقاضاها من هاشم عن (خطه) الضعيف للوحة رقم الكهرباء لدار هاشم رحمه الله!!

وكان هاشم قد عين خطاطاً بمديرية المساحة العامة سنة ١٩٣٧، ومكث فيها إلى سنة ١٩٦٠، حيث انتقل إلى وزارة التربية، فعهدت اليه رئاسة قسم الخط والزخرفة في معهد الفنون الجميلة، وقد بقي فيه إلى ان اختاره الله إلى جواره فجر يوم الاثنين ٣٠ نيسان ١٩٧٣ .

احمد مختار ورثاء النخيل في بولندا

يعقوب خميس

حل عازف العود الفنان العراقي المعروف احمد مختار ضيفاً على بولندا حيث عزف في كل من مدينتي بوزنان ووارسو. حضر إلى مدينة بوزنان أولاً بدعوة من منظمي المؤتمر العلمي العالمي بشأن / العراق الجديد في ضوء بناء دولة ديموقراطية فيدرالية / الذي عقد في جامعة آدم ميتسكيفيتش في بوزنان (١١ - ١٢ نيسان)، فقدم امسية رائعة في قاعة "كوليجيوم مينوس" في جامعة بوزنان. وعزف عدة مقطوعات موسيقية متنوعة اخاذة وبارعة على آلة العود مستخلصاً منه كل طاقاته، مما جعل الحاضرين يشعرون وكأن احمد مختار يعزف على اكثر من آلة واحدة! لقد عزف باداء غير تقليدي وروح عالية، متجاوزاً فكرة محدودية الآلة الواحدة وخصوصيتها البيئية! كان التراث الموسيقي العراقي والعراق من شماله إلى جنوبه، متألقين في تلك الامسية!!. بعدها قدم الفنان احمد مختار امسيتين رائعتين ايضاً في كل من جامعة وارسو (١٣ نيسان) في قاعة المؤتمرات التي غصت بالطلبة والاساتذة الذين صفقوا للفنان مختار كثيراً، وفي دار الادب (مبنى اتحاد الكتاب البولنديين وقاعته الشهيرة) في اليوم التالي كانت قاعة دار الادب غاصة بحضور متميز جله من الكتاب والفنانين والشبيبة الذين حضروا لحضور فعاليات يوم الشعر العالمي الذي كان احمد مختار ضيف الشرف فيه، كما حضر ايضاً السيد سفير جمهورية العراق الدكتور وليد شلتاغ عزف احمد مختار مقطوعات واعمالاً موسيقية تمثل غنى التراث الموسيقي العراقي من جهة وسمو الاداء العالي وسحره من جهة اخرى. وقدم مختار مؤلفته الشهيرة "رثاء النخيل" التي مزجت بين الروح العميقة الصوفية والتقنية الحساسة الدقيقة، وكانت مهداة إلى كل المبدعين العراقيين الذين قضوا بسبب بطش النظام.. وذلك بمناسبة منح اتحاد الكتاب البولونيين جائزة شعرية وتقديرية إلى الشاعر العراقي هاتف الجنابي الذي انفق اكثر من ثلاثين سنة من حياته في الشعر والترجمة والتاليف ولديه مؤلفات اغنت المكتبة العربية والبولونية، كما شكر مختار اتحاد الادباء وقال: اشكركم قد كرمتم مبدعاً من بلدي بينما بلدنا الاصلي لم يقم بذلك، بل فقدنا الكثير من المبدعين بسبب بطش النظام السابق ووشاية مرتزقة الثقافة والفنون.

كان حضور الفنان احمد مختار في بولندا مناسبة رائعة للتعريف بهذه الموهبة المميزة في بلد يعد ذاته واحداً من بين اهم معاقل الابداع الموسيقي في العالم الذي ولد فيه اهم عباقرة الموسيقى الكلاسيكية والرومانسية الغربية في القرون الماضية حتى يومنا هذا كما انها اشارة بل دلالة على حركية وحيوية الثقافة العراقية برغم اعمال القتل والتدمير التي تخترم جسد العراق.

سهم اخير

عبد الزهرة زكي

"ليس هذا عدلاً
ليس هذا من العدل بشيء"

قال الفقير، وقد كلّت يداه، وكلّ قوسه، ولم يكل الظلام.

"كلما ارمي سهماً نحو قلب العاصفة
يظل معلقاً في الظلام..
يظل هكذا مرمياً طائراً إلى الابد".

سهماً ثانياً وثالثاً ورابعاً..
ويعود إلى قوسه
إلى سهام لم يبق له منها غير سهم اخير.

"سهم اخير
خذيه يا عاصفة،
خذه يا قلب العاصفة
وسدده نحوي".

قال الفقير..
وقد كلّت يداه.